المشكلات النفسية للمجتمع المسلم

إن الإنسان هو ذلك الكائن ذو التركيب الثلاثي، المؤلف من: الهيكل الجسدي الذي يروح ويغدو به، والغرائز الحيوانية المبثوثة في كيانه النفسي، والروح العلوية الهابطة إليه من الملأ الأعلى والتي إليها مردّ الفطرة الإسلامية النابضة في أعماق شعوره.

وإنما الإسلام هو ذلك النور الهادي الذي وجهه الله عز وجل إلى هذه الأركان الثلاثة في عمق الكيان الإنساني. أي فلا يتكامل الإسلام في كيان الإنسان، إلا إذا خضع له العقل إيماناً وتصديقاً، واصطبغت به العواطف حباً وتعظيماً، واستسلم له الأعضاء والغرائز سلوكاً وتطبيقاً.

وهذا هو معنى تكوّن البنيان الديني المتكامل، من كلٍّ من الإسلام والإيمان والإحسان. فالإيمان مكانه الفكر والعقل، والإسلام يهيمن على الظاهر من الكيان والأعضاء، والإحسان صلة عاطفية تسري بالربط والتوثيق بين الفكر الذي آمن والكيان الذي استسلم.

وإنما يتحقق الأثر التربوي في حياة المسلم، من انسجام هذه الجوانب الثلاثة في كيان الإنسان وتناسقها في الاتجاه إلى هدف مشترك والسير على صراط واحد، بقيادة رشيدة من العقل ومعونة

obeikandl.com

من حرارة العاطفة والوجدان، وذلك هو قصارى ما تهدف إليه فنون التربية ومناهجها قديماً وحديثاً في حياة الإنسان.

ومن الثابت أن سائر الوسائل التربوية لم تنجح في السعي إلى تحقيق هذه الغاية، كما نجح الإسلام عندما يشعُّ سلطانه على الكيان الإنساني، ممثلاً في أركانه الثلاثة التي أشرنا إليها.

بوسعنا الآن أن نعلم مصدر المشكلات النفسية المتنوعة التي تطفو على سطح مجتمعنا الإسلامي. إن مصدر ذلك هو أن جلّ المسلمين إنما سرى الإسلام - في أحسن الأحوال - إلى كياناتهم الفكرية ثم وقف عندها، ولم يتجاوزها إلى مكمن العواطف والوجدان من أنفسهم، بل بقيت هذه العواطف ممزقة بين عوامل الشهوات والأهواء المتنوعة التي تطوف من حولها وتتربَّص بها.

عندما يتقلص سلطان الإسلام عن ساحة العواطف في كيان الإنسان، وينكمش على ذاته في سجن الدراية العقلية وحدها، تبرز حالة من الازدواج المتشاكس في كيان هذا الإنسان، فيغدو مسلماً بعقله وفكره، طليقاً عن الإسلام بعواطفه ووجدانه ومن ثمّ بغرائزه أيضاً.

ومن هذا المصدر الوحيد تتفرع سائر المشكلات النفسية المتنوعة التي نحن بصدد التعريف بها والبحث عن علاجاتها.

❊ ❊ ❊

وبوسعنا أن نلخص الحديث عن أهم هذه المشكلات، من حيث التعريفِ بها، في المشكلات التالية:

أولاً - العصبية للذات، والانتصار للنفس

مردّ هذه المشكلة إلى طبيعة الأنانية، التي هي من أخطر الآفات النفسية التي أوجب الإسلام على الإنسان معالجتها والجهاد الدائب للتخلص منها.

وهي تتمثل في «النزعة الفردية» عند بعض الناس، وفي «النزعة الجماعية» عند آخرين. ولا شك أن كلتا هاتين النزعتين تعبير عن كبرياء النفس وأنانيتها، غير أن العصبية الناجمة عن «النزعة الفردية» أنانية مكشوفة واستكبار معلن، أما الناجمة عن «النزعة الجماعية» فاستكبار خفي، لا يتحرك إلا تحت أقنعة الانتصار للحق وما يقضي به المنطق والعقل. فلا جرم أن خطر هذه النزعة الثانية أعمق في النفس، وأكثر انتشاراً في المجتمع وتأثيراً فيه.

ومن أسوأ آثارها سحق مشاعر الود والتآلف بين القلوب، وإشاعة عوامل الحقد والبغضاء فيما بين الجماعات، وتحويل الأمة والمجتمع إلى فئات متناحرة متصارعة، تحت اسم الدفاع عن الحق والانتصار له!..

ثانياً - فقد الاستقرار النفسي والفكري

وهذه المشكلة تنشأ بدورها عن عوامل اجتماعية يطول

ذكرها.. وأياً كانت هذه العوامل فمن الطبيعي أن تظهر في حياة المجتمعات والشعوب عندما تمرّ من حياتها في منعطف حضاري، كالذي نمرّ به اليوم، غير أن البلاء العظيم الذي نعانيه إنما يتمثل في طول الفترة التي استغرقها مرورنا في هذا المنعطف، حتى لقد كدنا أن نعدّ أنفسنا سجناء فيه، تقطعت بنا السبل فيه عن الماضي، فما نملك شيئاً من ذخره أو مقوماته، اللهم إلّا الوصف والذكرى، بعد فخر الانتماء والانتساب، وتخلفت بنا العثرات فيه عن المستقبل، فما يربطنا به إلّا الأحلام والأماني.

هذا الواقع كان لابدّ أن يؤدي إلى طرح أفكار وشعارات متناقضة، بعضها يتنكر للماضي كله، وبعضها يهبُّ متجهاً إلى نقيض ذلك.. وآخرون يأخذون - فيما يزعمون - بمنهج معتدل وسط. وبوسعنا أن نلاحظ انعكاس هذا الصراع على مناهج التربية والتعليم وانتشار أصدائه في أجهزة الإعلام ومنابر الإرشاد والتبليغ، وأن نتبين مدى تأثيره في أنفس الجيل الناشئ الجديد.

ثالثاً - مشكلة انجذاب الشخصية المسلمة إلى فلك الحضارة الغربية

ما من ريب في أن الأمة الإسلامية (في مجموعها) تقع اليوم، بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية في منطقة الجاذبية الغربية، فهي مهما تحركت لا تتقلب إلّا ضمن سلطان التأثُّر بها والدوران حولها والانعطاف إليها.

ولا شك أن ثمة أصواتاً ترتفع هنا وهناك، يقف أصحابها خارج منطقة النفوذ، أو على حافتها، غير أن هذه الأصوات لم تشكل إلى الآن تياراً يتمتع بأي جاذبية متكافئة.

ومن أبرز آثار هذه الظاهرة، أن أصولنا الثقافية ملقاة اليوم على رفوف الإهمال أو مرمية في زوايا النسيان.. وأن فنون التربية وعلم النفس والاجتماع والفلسفة والأخلاق، التي تدرس في مجتمعاتنا، ليست إلا مجموعة تصورات وضعت تعبيراً عن النظرة الغربية إلى الوجود، وُضِعَتْ دعماً للوضع الاجتماعي الذي ارتضاه لنفسه الرجل الغربي، اعتماداً على قناعته واستلهاماً من تاريخه وتراثه.

ومن أخطر هذه الآثار أن كثيراً من أرباب الفكر في حياتنا الثقافية والاجتماعية، انتهوا إلى حالة من الانجذاب النفسي لمحور الحضارة الغربية، جعلتهم لا يبالون بطرح الاقتراح القائل بـ «ضرورة قراءة جديدة للقرآن، يتم فيها تجاوز قيود التفسير اللغوي، بحيث يُتوصل من وراء هذه القراءة الجديدة إلى صيغة تتم فيها تبعية الإسلام للحضارة الغربية»، والرغائب المختلفة للنفوس!!.

❊ ❊ ❊

العلاج الكلي للمشكلة الكلية

إذا كانت هذه المشكلات الثلاث، فروعاً لمشكلة أساسية كبرى، تتمثل - كما ألمحنا - في أن جلَّ المسلمين اليوم إنما يسري الإسلام إلى قناعاتهم الفكرية ثم يقف عندها، فلا ريب أن علاج هذه المشكلات الفرعية لا بدّ أن يكون هو الآخر فرعاً عن علاج أساسي يجب البدء به والانطلاق منه، فما هذا العلاج الأساسي؟

هو: بذل الوسائل الممكنة لإخضاع الكيان الإنساني كله للإسلام، بحيث يتفهمه العقل، ويصطبغ به الوجدان، ويخفّ إلى تطبيقه البدن والأعضاء.

غير أن جدوى هذا العلاج تتوقف على وجود الرغبة الصادقة في استعماله، ذلك لأن روح العمل، أيّ عمل، إنما تتمثل في الرغبة الصادقة في النهوض به، وبدون هذه الرغبة لا يعدو أن يكون العمل أمنية من أماني النفس أو حديثاً يجترّه اللسان..

إذن، فمن لك بإيجاد الرغبة في استعمال العلاج الكلي لهذه المشكلة؟ وكيف السبيل إلى غرسها في النفوس؟

إذا تحققت الرغبة لدى المسلم في أن يمتد سلطان الإسلام على كيانه كله، انتقل بذلك من ساحة النفاق مع الله ومع الناس، إلى ساحة الصدق مع الله ومع الناس.. ويتهيأ بذلك لقبول العلاج واستعماله.. وإنما علاج ذلك، السير في طرق

تزكية النفس. والسير في هذا الطريق هو المعنيُّ بالجهاد في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٢٢/٧٨]، وهو المعنيُّ بكلمة التزكية المتكررة في مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٨-١٩]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠].

ولكن ما التزكية؟ وما المنهاج العملي لبلوغها؟

يتلخص معنى التزكية في السعي إلى تخفيف ضجيج الشهوات والأهواء التي تحيط بالروح، وإلى فتح ما أمكن من النوافذ بينها وبين عالمها العلوي الذي هبطت منه وتظل في حنين دائم إليه، عن طريق تعهدها بالغذاء الذي تحتاج إليه، وتنمو وتنتعش به، ومن الثابت يقيناً أن الروح إن تلقت غذاءها الذي تحتاج إليه والذي سنتحدث عنه، انتعشت وأشرقت على النفس كلها بضياء علوي يغمرها حباً لله ومهابة منه، وهيمنت بمشاعرها وأشواقها على مكمن الغرائز في النفس، بعد أن كان هو المهيمن على الروح والمحيط بها من الأطراف.

المنهج السلوكي إلى التزكية

لقد عرفنا أن السير في هذا المنهج هو المعنيّ بالجهاد في كثير من آيات القرآن الكريم.. ونحن لن نرسم خطا هذا الجهاد من خلال عرض فلسفة عميقة ذات ديباجة وإطار.. ولا من خلال اقتراح منهج حركي تضبطه التنظيمات الشكلية، وتتحرك في

داخله الألسنة المتناقشة والأعضاء المتهارجة، بل سنتبصّره من خلال ما هو أبسط فهماً وأقرب منالاً.. نتبصره من خلال أوضح الآيات التي نقرؤها صباح مساء في كتاب الله عز وجل، غير أن كثيراً منا عن ترياق هذه الآيات ساهون معرضون!..

وهو يتلخص في اتباع ما يلي:

أولاً - تفكر الإنسان في ذاته ومصيره، وفي أن الله يراقبه في كل آن، وإيقاظ العقل لذلك عند كل غفلة ونسيان.

والفكر حركة العقل.. فمن دونه لا يغني العقل شيئاً.

والفكر هو الذي يحرر العقل من سلطان النفس وغوائلها.. فمن دونه لا يستبين الإنسان الفارق بين دوافعه العقلية ورعوناته النفسية!..

غير أن دوام الفكر يحتاج إلى موضوع يشتغل به الذهن ويطوف حول العقل. والموضوعات التي تعد أداةً لذلك كثيرة ومتنوعة.

ومهما يكن، فإن التفكر، كلما كان في نجوة عن الناس وضوضائهم وملهيات الدنيا وشواغلها، فإن ثماره تكون أتم وأسرع، لأسباب علمية نفسية لا يتسع المقام لخوضها.

ولست أدعو بهذا إلى الانعزال عن المجتمع والعيش بعيداً عنه، فليست هذه فطرة الإسلام ولا هي وظيفة المسلم. ولكني أدعو المسلم إلى التأسي في ذلك برسول الله ﷺ، إذ كان يأخذ نفسه بساعات من الخلوة والبعد عن الناس.. أدعوه إلى أن يخلو

إلى عقله كلما أراد أن يرجع إلى حساب صندوقه، أي كما يصنع التاجر إذ ينخرط كل يوم في صخب الناس وضجيج الأسواق. ولكن ذلك لا يمنعه أن يخلو إلى نفسه مساءً في مكان من داره بعيداً عن أهله وأصدقائه ليمعن النظر في دفاتره وحساباته.

إن من الواضح جداً أنه لولا اهتمامه بهذه الساعات من العزلة في عمره التجاري لما قدَّم له متجره الذي يغصّ بالغادين والرائحين إلّا الندامة والخسران.

ثانياً - التزام ورد منتظم دائم من تلاوة كتاب الله وما يتبعه من التسبيح والتهليل والاستغفار.

ولا أعلم خلافاً بين أهل العلم في أنه لابد للمسلم من أن يتخذ لنفسه وظيفة دائمة من هذه الأعمال، وأن أفضل الأوقات لذلك هو البكور والآصال، كما نص على ذلك كتاب الله عز وجل، وكما دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة.. ولا التفات إلى من يزعم أن الذكر عبادة مطلقة وأن تعيين وقت خاص لها بدعة محرمة!.. إذ إن ثمة فرقاً كبيراً بين العبادة المقيدة بالإطلاق عن وقت معين، والعادة المطلقة عن ذلك القيد. ويعرف الفرق بين هذين القسمين أولو التحقيق من أهل العلم.

أما أثر ذكر الله عز وجل في تحرير النفس من مشكلاتها وآفاتها، فحدث عن ذلك ولا حرج.. إنه العلاج الأعظم بل الأوحد لتزكية النفس وكنس كل ما قد يرسب فيها من آفات الأنانية والحقد والحسد والتعلق بالدنيا بكل صورها وأنواعها،

وهو الأداة الوحيدة لتحويل النفس الأمارة إلى نفس لوّامة راضية!..

وذلك هو السبيل إلى الإحسان الذي أمر به رسول الله ﷺ.

ثالثاً - (وهذا علاج سلبي) تجنب أكل الحرام، فإن الجسم الذي رُبِّي على الحرام، تكمن فيه، على الغالب، نفس نزاعة إلى الانحراف والانفلات من حدود الله عز وجل، مهما انضبطت داخل حدوده في الظاهر.

والمال الحرام يبدأ من سلب أموال الآخرين بدون رضاً، أو بدون وجه شرعي، ثم يتنوع إلى أنواع مختلفة حتى ينتهي عند الشبهات التي هي مظنة الحرام.

وما أكثر المسلمين إذا عددناهم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة، واعتياد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة، وما أقلهم إذا عددتهم بمقياس التعفف عن المال الحرام، والتزام حدود الله في المأكل والمشرب.

رابعاً - كثرة الدعاء وشدة التضرع إلى الله عز وجل؛ وهذا العلاج عبادة بحد ذاتها، ذات أهمية قصوى، بل هو مخ العبادة ولبها، بل هو العبودية التي تعدُّ أرقى مراتب القرب إلى الله عز وجل، وكلنا قرأ الدليل على ذلك في كتاب الله عز وجل.

وما أكثر من يهونون من أمر الدعاء، محتجين بأن ما يطلبه العبد إن كان مسطوراً في قضاء الله، لم ينفعه الدعاء في طلب الوقاية منه، وإن لم يكن مسطوراً لم يحتج إلى الدعاء من أصله.

ولا نريد أن نجيب عن هذا الاحتجاج بما قرره العلماء في هذا الصدد، فإن بحثنا هذا يتسم بطابع التبسيط، لذا فإننا نقول: إن الله عز وجل أمر عباده بالدعاء، ووعدهم بالاستجابة، ووعْدُ الله صدق لا يلحقه خلف، وهذا ما يهم المسلم معرفته. فما لنا وللبحث فيما ليس من شأننا ولا اختصاصنا؟ وفيم يؤرق الإنسان فكره في أمر عائد إلى تدبير الله وعظيم قدرته وسلطانه؟ قضاء الله حكم من أحكامه، واستجابته الدعاء وعد قطعه على نفسه، وإنما وظيفتنا الخضوع لحكمه والإيمان بوعده، وأن نكل تدبير الأمر إليه.

❊ ❊ ❊

أثر هذه العلاجات في حل المشكلات الفرعية

إذا استقام المسلم على استعمال هذه العلاجات، فإن وجدانه الإنساني يصطبغ بالإسلام رغبة ورهبة وإجلالاً لله عز وجل، فلا تقوده العصبية عندئذ على طريق الدراسات العلمية والفكرية أو في نطاق الدعوة إلى دين الله عز وجل، لأن من شأن تلك العلاجات أن تفجر نوازع الإخلاص لله في قلبه، وهيهات أن يتجاور الإخلاص لله مع العصبية للنفس في قلب امرئ واحد.

ولن تجذبه عندئذ بوارق الحضارة الغربية، لأن حبه وتعظيمه لله عز وجل لا يدعان في قلبه متسعاً لحب شيء غير دين الله عز وجل مما قد يتناقض معه، ولأن تنامي شعوره بالعبودية لله عز

وجل، يشمخ به إلى درجة من الاعتزاز، لا يرى معها وجهاً للتباهي بشيء يتجافى ويختلف عن دين الله عز وجل.

ولن يعاني أي اضطراب نفسي، مهما تجمعت عوامل ذلك من حوله. وكيف يجتمع اضطراب النفس مع دوام ذكر الله ومراقبته، وقد قال الله في محكم كتابه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/٢٨]؟ صحيح أن الذكر يبعث الوجل في القلب كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٢]، ولكن اقتحام القلب مخاضة هذا الوجل هو الجسر الذي يجتازه إلى تلك الطمأنينة.

❊ ❊ ❊

وأخيراً - أخطاء يجب التخلص منها

من أهم هذه الأخطاء، ما يلقاه هذا النوع من العلاج في نفوس كثير من الناس (لا أقول من عامة الناس) بل من العلماء والموجهين فيهم، من الاستهانة به والتهوين لشأنه!.. وإنه لأمر عجيب ومؤسف، ولا أرى له من سبب إلّا ما يذهل عنه جلّ هؤلاء الناس، من أن الإسلام ليس مجرد مذهب فكري حركي، وإنما هو قبل ذلك ممارسة لمعنى العبودية لله عز وجل، فهو المنطلق الأول لكل عمل وحركة وسعي.

ومن هذه الأخطاء أنَّ كثيراً منا يركّز جل اهتمامه في نطاق الدعوة الإسلامية وتربية النفوس على النقاط السلبية، دون أي اهتمام بالتنبيه إلى ما يقابلها من النقاط الإيجابية!..

فالتحذير من البدع وتفنيد جزئياتها.. وتعقب الاجتهادات والآراء المنحرفة أو الشاذة.. وتتبع الأخطاء الفكرية أو السلوكية التي ينزلق إليها بعض أهل العلم والإرشاد.. هو قوام عمل الدعوة الإسلامية في حياة كثير من الناس!..

ونحن لا نشك في أهمية محاربة البدع وزغل العلم، بعد الاتفاق على أنه كذلك، ولكن لابدّ أن نتذكر بأن ذلك ليس إلّا الجزء التحضيري والتمهيدي من عمل الدعوة والإصلاح، أما الجوهر الأساسي منه فإنما هو البناء الإيجابي.

لم نرَ واحداً من هؤلاء الإخوة، أقبل فتحدث مرة عن ضرورة الخشوع في الصلاة، وعن الأسباب التي توصل إلى ذلك!.. أو تحدث عن ضرورة تربية محبة الله في القلب، وتحقيق معاني التوكل عليه والرضا عنه والمراقبة له في حنايا النفس والفؤاد!.. أو نبه إلى ضرورة الاتصاف بالإخلاص لله في العمل، والصدق في النية والعزم!.. هذا مع أن مشكلة جل شبابنا الذين يقبلون إلى الله بعد إدبار، أنهم يبحثون عمن يرشدهم إلى ينابيع هذه المعاني التي هي لباب الدين، ويعلنون عن ظمئهم الشديد لذلك، ولكنهم قلما يجدون أمامهم إلّا من يهتم بملاحقة النقاط السلبية، فهو في شغل شاغل عنهم بسببها، أو من لا يعنيه شيء من هذا الأمر لا في سلبياته ولا إيجابياته، إذ هو لا يتعامل إلّا مع البنية الفوقية للإسلام، المتمثلة في الحركة والجدل والفكر، أو من يلبي نداءه ويسعفه فيما يبحث عنه، ولكنه يزجه في بدع باطلة وأمور مخترعة وانحرافات لا تقرها موازين الشرع.

ومن هذه الأخطاء أن كثيراً منا لا يروق له من الكتب والأمهات التي تفيض بها مكتبتنا الإسلامية، إلّا تلك التي تخوض في مسائل العلم وتقارن بين الآراء بالجدل والنقد والتفنيد!.. فهي اليوم هواية كثير ممن يشتغلون بالثقافة الإسلامية، أما الكلام التربوي الأخاذ عن النفس الإنسانية وأدوائها، والطرائق التربوية السلمية لمعالجتها، فهم عن ذلك كله معرضون، وعن الاهتمام بشعلة الإخلاص لدين الله في طوايا القلب غافلون.

فإن تحقق هذا العلاج، فما أيسر أن يتضح وجه الحق في كل ما قد ذكرت.. وإلّا، فما أطول ما يناله النقد والنقض.. وأن يتلاشى مضمونه في ضرام النقاش والجدل حوله مداً وجزراً.

فاللهم أكرمنا بنعمة الإخلاص لوجهك، وقنا فتنة النفس والهوى.. ومتعنا بصدق العبودية لك.

وبعد: فلا يهولنَّك أن ترى في الناس من ينعت هذه العلاجات التي ذكّرتك بها، مما هو مقرر في كتاب الله عز وجل، بالظلامية، وينعت الآخذين بها بالظلاميين، ويطلق على من يركن إلى المشكلات الخطيرة التي حدثتك عنها اسم المستنيرين أو المتنورين. فإن اللعب بالألفاظ والأسماء لا ضرر منه إن سلمت المسميات ولم تحجب حقائقها عن العقل والفكر، إنه لا يخدع أو يضلل إلا اللاعبين أنفسهم.